

## لست بأولهم

انتفضت من مكاني أجوب بناظري كل الحضور من صبيان  
القرية أتشممهم وكأنني أبحث عن شيء ما.  
لم أكن أمارس هوايتي أو أستعرض موهبتي التي علمني  
صديقي إياها.  
تسمرت أقدامي أمام ذلك الصبي الصغير ذي الشعر الكثيف،  
الجالس على مقربة من الساقية القديمة.  
أخذت أراقبه بناظري أينما غدا أو راح، ثم أعود لأقفز وأحط  
حول صديقي الذي لم يلاحظ اختفائي المفاجئ على غير عادتي.  
في الصباح، شاهدته يتسلل من باب الحظيرة، أسرع  
أركض ناحيته وأنبح بأعلى صوتي وأتقدم ناحيته مرة، وتأخر مرة  
أخرى، وأنبش بمخالبني في الأرض بعدما تأكدت ظنوني، حتى  
صدّرت الرعب إلى قلبه، فأخذ يرتعد ويبكي وألقى بالجن من بين  
يديه ثم فر هاربًا.

نهرتني جدة صديقي ورمقتني بعينها، ولملمت بقايا الجبن  
ثم انصرفت وصديقي عالق في حيرة من أمري، تساوره الشكوك  
والظنون ونظراته ترمي بسهام الشك والحيرة.

وجدته يتساءل في صمت أفهمه بمجرد أن تتلاقى أعيننا عن  
مدى تغير مزاجي وطباعي في الفترة الأخيرة.

ومرت الأيام وسهام الشك تقتلني وتؤلمني وتفتك بأعماق  
فؤادي، حتى انطفأت البهجة من حولي، والجدة تشتكي من سرقة  
الجبن من حظيرة الماشية.

تركني وانزوى بعيداً وهجرني، ولم يعد يلاعبني حتى تغير  
طعم الأيام، وبدت مرارتها تبعث بشراراتها من حولنا.

في المساء، وجدتهم يتغامزون وهم يشيرون إليّ، أحسست  
ساعتها بأن هناك شيئاً ما يحاك ضدي، وكانت صدمة عنيفة هزت  
أعماقي.

سمعته ينادي عليّ، هرولت إليه مسرعاً لأحتضنه، وأنا أهز  
ذيلي وألف وأدور من حوله متناسياً ذاكرة الأحداث ومرارة الأيام  
السابقة.

لم يفتح ذراعيه هذه المرة ورمقني بناظريه، وأخذني بجواره  
وانطلق بالعربة الكارو وسط القرية، تدفعنا العربة وتموج بنا وسط  
المزارع والحقول ووسط القرى المترامية على حافة النهر الكبير.

سويغات قليلة مرت علينا، أحسست به وكأنه يحمل عبئاً  
ثقيلًا على كاهله، حينما أبصرت العبرات تغرق عينيه، وهو  
يحتضني ويبكي، لم أتمالك نفسي ساعتها فغرقت عيناى.  
حملني وهو يبكي ويتمتم كمن يحدث نفسه، ويبيد تملكته  
رعشة خفيفة قذف بي في النهر الكبير.

لحظات قليلة حاولت وحاولت، ولم أستطع سوى الاستسلام  
وكانني أساق إلى حتفي على غير إرادتي بعدما سلبت قواى.  
تذكرته لحظة أن أخذني من تحت أمى، وأنا ما زلت صغيراً  
ليرعاني، ويرضعني بنفسه من حليب الماشية لحظة أن استعصى  
عليّ أن ألقف ثدى أمى، وسط تكدس ونهم إخوتي الأكبر منى  
حجماً.

تذكرته حين كنا نلهو ونلعب ونجري هنا وهناك، وسط  
الحقول وعند الساقية القديمة على مشارف القرية كانت صحبتنا.  
عدت لأجدنى أغوص وأغوص بأعماق النهر الكبير المظلمة،  
توقفت أنفاسى بعد امتلاء صدري الصغير بمياه النهر.  
ارتطمت بقاع النهر، يكاد يغشى عليّ وكادت نبضات قلبى  
أن تتوقف.

استجمعت بقايا قواى المنهارة، وسلمت نفسى لموجات  
النهر حتى لفظنى النهر إلى سطحه.

لحظتها.. لحظتها فقط تحركت أقدامي تضرب صفحات  
مياه النهر لأتحرك ببطء ناحية الشاطئ.

لحظات قليلة مرت على كدهر طويل، أحمل على كاهلي ما  
لا تحمله الجبال لا أصدق نفسي، أخاله كابوسًا راودني.

أخذت أنفض بقايا الماء العالق على جسدي، وأبحث عنه  
هنا وهناك، حتى رأيته يختفي خلف الحجب؛ حيث تعانق السماء  
الأرض.

جلست وحيدًا تطاردني الذكريات تارة وتدفعني الأشواق إلى  
العودة تارة أخرى.

كيف أعود! وهم من أساءوا الظن بي وألقوا بي في ظلمات  
النهر.

لحظات عصبية مرت عليّ بمرارتها، وأنا عالق ما بين وفائي  
وكرامتي.

أدوس على قلبي حتى يتمزق ويثن وينزف، ولن أنحنى أبدًا،  
فلست بأول المنبوذين وآخر اليتامى.

كثيرة هي تلك الصراخات التي تعج بصدري، وتطرح  
همهمات تختلج أعماقي حتى إنني أكاد أن أسمعها.

رويدًا رويدًا سأتناسى الحزن الدفين، وتلك الأشجان مع  
الصبر ستمسي ذكرى.

ومهما تجاوزت تلك الشكوك، ومن أساءوا الظن بي  
سأصطدم بمعالمتهم.

دائمًا ما تبدو صورتهم أمامي وفي مخيلتي تعود ذكراهم من  
حين وآخر على الرغم من مرور سنوات طوال.

قد ظننت لوهلة قصيرة من الزمن -وأنا أعيش معهم- أنني  
منهم ولكنني أصبت بخيبة أمل عندما أبصرتهم وهم يتغامزون  
ويشيرون إليّ.

كيف وأنا المؤتمن الأول عليهم وعلى ماشيتهم!  
لملمت بقايا نفسي، ورحت أحث الخطى وسط الظلام،  
أتحرك ببطء شديد خطوة تلو الأخرى ناحية القرية.

جلست بجوار الساقية القديمة على مشارف القرية، ألتقط  
الأنفاس أتحسس ترابها أتشممه وأنا أبكي.

أخذتني أقدامي؛ حيث البيت الكبير، وجلست ما بين عيدان  
الحشائش أراقبهم من بعيد.

لم أتمالك نفسي عندما رأيته يبكي وينعي فراقني، بكيت  
وبكيت، وودت لو احتضنته ومسحت دموعه وواسيته، حتى إنني  
كدت أن أهرول ناحيته لأحتضنه.

انتظرت وأنا على هذا الحال، لا أعرف كم مضى على من  
الوقت، وبينما أنا ما بين اليقظة والنوم، إذ تشممت رائحة تهب  
من بعيد وسط الظلام.

شبح يقترب، إنه سارق الجبن يتسلل إلى داخل الحظيرة،  
أسرعت أهول ناحية بابها واحتجزته بداخلها، وأخذت أنبح  
بأعلى صوتي، أنادي عليهم ليفيقوا من سباتهم مرة.. مرتين..  
ثلاث مرات.

ظنوا أنها أضغاث أحلام تراودهم، ولكنهم سرعان ما نهضوا  
مسرعين ناحية الصوت الذي غاب عنهم منذ الأمس القريب.  
أمسكوا به ويده قطع الجبن وقيدوه بالحبال.  
وجدتهم يطأطؤون رؤوسهم خجلاً مني يتسابقون يريدون أن  
يحتضنوني.

هروول صديقي ناحيتي فاتحاً ذراعيه، فتراجعت إلى الوراء  
ودمعت عيناى، فإنني لم أحزن على إلقائي في غياهب النهر  
الكبير، قدر ما حزنت جراء نظرات الشك والحيرة التي رأيتها  
في عينيه وانزويت خلف الحجب، مع ما تبقى من كرامتي أتجرع  
مرارة الحرمان.